LSE Middle East Centre

تصورات نيوليبرالية

قراءة في الإعلام القائم على الأدوار الجندرية والثقافة الشعبية في الضفة الغربية

بولي ويذرز، ريما حمّامي

رانيا جواد، أميرة سلمي

مركز الشرق الأوسط | آب / أغسطس 2024

عن مركز الشرق الأوسط

يعتمد مركز الشرق الأوسط على علاقة كلية لندن للاقتصاد و العلوم السياسية الطويلة مع المنطقة، ويوفر محوراً مركزياً لمجموعة واسعة من البحوث حول الشرق الأوسط.

يهدف المركز إلى تعزيز التفاهم وتطوير البحوث الدقيقة حول المجتمعات والاقتصادات و الأنظمة السياسية والعلاقات الدولية في المنطقة. ويشجع المركز كلا من المعرفة المتخصصة والفهم العام لهذا المجال الحيوي. للمركز قوة بارزة في البحوث المتعددة التخصصات والخبرات الإقليمية. باعتبارها من رواد العلوم الاجتماعية في العالم، تضم كلية لندن للاقتصاد أقسام تغطي جميع فروع العلوم الاجتماعية. يستخدم المركز هذه الخبرة لتعزيز البحوث المبتكرة والتدريب على المنطقة.

مسؤولة التحرير
نسرين الرفاعي

تصميم
ربال سليمان حيدر

صورة الغلاف
لافتة مطعم على الجدار الفاصل بين إسرائيل وفلسطين، الضفة الغربية.

© Boaz Rottem / Alamy Stock Photo.

تلقى البحث الذي استندت إليه هذه الورقة الدعم من برنامج التعاون الأكاديمي مع الجامعات العربية، الذي يديره مركز الشرق الأوسط في جامعة لندن للاقتصاد و العلوم السياسية، وبتمويل من مؤسسة الإمارات. الآراء الواردة في الورقة لا تعبّر بالضرورة عن رأي مؤسسة الإمارات. وتساهم جامعة بيرزيت في هذا البحث بصفتها مؤسسة شريكة.

LSE Middle East Centre

تصورات نيوليبرالية: قراءة في الإعلام القائم على الأدوار الجندرية والثقافة الشعبية في الضفة الغربية

بولي ويذرز، ريما حمّامي، رانيا جواد، أميرة سلمي

مركز الشرق الأوسط
آب/أغسطس 2024

تم نشر هذا التقرير باللغة الإنجليزية في كانون الأول/ديسمبر 2023

نبذة عن الكاتبات

بولي ويذرز حاصلة على زمالة ليفرهولم بداية المسيرة المهنية في مركز الشرق الأوسط في جامعة لندن للاقتصاد و العلوم السياسية، حيث تكتب وتبحث في القضايا المتعلقة بالجندر و الجنسانيه في وسائل الإعلام والثقافة الشعبية في فلسطين وخارجها. وهي الباحثة الرئيسية في مشروع "تصورات نيوليبرالية".

ريما حمّامي أستاذة مساعدة في الأنثروبولوجيا في معهد دراسات المرأة في جامعة بير زيت، وهي شريكة الباحثة الرئيسية في مشروع "تصورات نيوليبرالية".

رانيا جواد مديرة معهد دراسات المرأة، وأستاذة مساعدة في قسم الآداب واللغة الإنجليزية في جامعة بيرزيت. وهي باحثة مساعدة في مشروع "تصورات نيوليبرالية".

أميرة سلمي أستاذة مساعدة في البلاغة في معهد دراسات المرأة في جامعة بيرزيت، وهي باحثة مساعدة في مشروع "تصورات نيوليبرالية".

الملخص

لدى السير في شوارع رام الله، لا تخطئ العين لوحات الإعلانات الطرقية وشاشات التلفزيون والمُلصَقات المصطفة على جنبات شوارع المدينة. وكثيراً ما تحتوي هذه الوسائط صوراً برّاقة لأسر نواتية شابة – قوامها دائماً رجل وامرأة غالباً ما يكون لون بشرتهما فاتحاً – تنظر إلى منازل "الأحلام". توثّق هذه المواد اندماج رأس المال والتطلعات في الحياة اليومية في فلسطين بعد اتفاقية أوسلو على نحو متزايد. كما تبيّن بوضوح كيف أحدثت "الإصلاحات" النيوليبرالية تحولاً في الاقتصاد السياسي الفلسطيني خلال الأعوام الثلاثين الماضية (على الأقل). فلا ريب أن رام الله تجسّد، اليوم، التعقيدات التي سبّبتها عملية أوسلو أكثر من أي مكان آخر في فلسطين، إذ يعيش السكان حاضراً استيطانياً استعمارياً ترسم الرأسماليةُ النيوليبرالية ملامحَه. تناولت أبحاث صدرت مؤخراً دور هذه التحولات في إعادة تشكيل الاقتصاد السياسي لفلسطين المحتلة، أو تعيد توجيه النضال في سبيل التحرر الوطني، أو هما معاً، ولكن الممارسات الثقافية والأشكال الإعلامية التي ترسم وتجسد وتشرح التغيرات السياسية والاقتصادية قلّما تُسند لها مكانة مركزية باعتبارها تنتج المعنى. ولعل العمل البحثي الأقل انفتاحاً في هذا الصدد هو ذاك الذي يستكشف أثر هذه المظاهر الثقافية على أعراف الجندر (الجنسانية) والميول الجنسية. يقدم هذا المشروع تفسيراً مختلفاً للنظام النيوليبرالي في الضفة الغربية، يتجاوز هذه القيود النظرية التقليدية. باتّباع منهجيات نصّية وكيفية، يركّز البحث على إنتاج واستهلاك الإعلانات القائمة على أدوار جندرية محددة لاستكشاف دور الثقافة النيوليبرالية في بناء الذاتية الجندرية. ويطرح البحث السؤال، بشكل عام، حول أشكال الاقتصاد السياسي المتحولة والعلاقات الاجتماعية والممارسات الثقافية المرتبطة بأنماط متغيرة للذاتية القائمة على أدوار جندرية في فلسطين المعاصرة.

المقدمة

بولي ويذرز

عند التجول في شوارع رام الله، العاصمة غير الرسمية للضفة الغربية المحتلة، يصعب تجاهل لوحات الإعلانات الطرقية والشاشات الرقمية والإعلانات التي تعمّ المدينة. بعض هذه الإعلانات هي لأسر نواتية شابّة – قوامها دائماً رجل وامرأة غالباً ما تكون بشرتهما فاتحة – تنظر بتَوقٍ إلى منازل الأحلام. وتستخدم إعلانات أخرى رموز فلسطين التاريخية المعروفة لتسويق القروض المصرفية لشراء السيارات وإقامة حفلات الزفاف الفاخرة لزبائن مستقبليين متخيّلين. تستخدم عدة إعلانات التصورات الاستشراقية، بما فيها من أبعاد جندرية سلبية، للشرق الأوسط «الغرائبي» في تسويق منتجاتها للجمهور المحلي والمستثمرين من المنطقة. يوثّق هذا النوع من التمثيل تعاظم اندماج ثقافة رأس المال والتطلعات وريادة الأعمال في الحياة اليومية في فلسطين، في ظل الاستيطان. وتبيّن أن الإصلاحات النيوليبرالية أحدثت تحولاً في الاقتصاد السياسي الفلسطيني خلال السنوات الثلاثين الماضية على الأقل. ولا ريب أن رام الله اليوم تجسّد التعقيدات التي خلّفتها اتفاقية أوسلو عام 1993 أكثر من أي مكان آخر في فلسطين، حيث يعيش سكّانها حاضراً استيطانياً استعمارياً ترسم ملامحَه الرأسماليةُ النيوليبرالية .

إعلان عن قرض سكني من البنك العربي في الضفة الغربية. سعياً إلى إثارة الحلم، تبدأ عبارة الإعلان بكلمة «تمنيت» المشطوبة ليحل محلها «تملكت» (التقطت بولي ويذرز الصورة في رام الله ، ٢٠١٧/٠١/١٩)

يركز هذا المشروع على التحولات الإعلامية اليومية في شوارع رام الله كنقطة انطلاق. وضمن سياق الاقتصاد السياسي الذي ترسم معالمه العولمة النيوليبرالية وحرمان الفلسطينيين من الدولة والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، يستقصي البحث إنتاج مواد إعلامية قائمة على اختلاف الجندر وتوزيعها وتلقيها، (مثل العروض المصرفية «لتمكين» النساء من خلال الخدمات المالية)، أولاً، والممارسات الثقافية من خلال الإنتاج المسرحي والمشاركة بتمويل من الجهات المانحة في مساعٍ «لمواجهة» العنف المنزلي، ثانياً، من أجل استكشاف مدى أثر المعايير والأعراف النيوليبرالية على الذاتيات القائمة على الجندر في فلسطين اليوم.

من الغريب أنه رغم انتشار ثقافة الاستهلاك وأنماط العيش المستمدة من الانقسام الطبقي في الضفة الغربية، تقلّ الدراسات المنهجية التي تتناول الحياة الجندرية والثقافية والنفسية للنيوليبرالية في فلسطين اليوم. كذلك، وكما سنبيّن لاحقاً بتفصيل أكبر، نظراً لحضور الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، تنزع الأبحاث إلى التركيز على التحولات النيوليبرالية من منظور الاقتصاد السياسي تحت الاحتلال.[1] نتيجة لذلك، نعرف الكثير عن أثر وسائل الإعلام في إرساء أشكال نيوليبرالية أو ما بعد نيوليبرالية للنسوية والأنوثة في مجتمعات الشمال العالمي الرأسمالية المتطورة.[2] إلا أننا أقل استعداداً بكثير لتتبع انتقال هذه الأشكال المرِنة والتحولات التي تطرأ عليها بحيث تندرج ضمن الحياة المعاصرة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.[3]

بدلاً من ذلك، ركّز التنظير الجندري في الأبحاث التي تناولت فلسطين إلى حد بعيد على الصلة بالمشروع الاستيطاني الإسرائيلي الذكوري، والتيارات الوطنية المناوئة للاستيطان التي نتجت عن هذا المشروع. وركزت الباحثات النسويات على أنه بالنظر لما يستخدمه المشروع الاستيطاني الإسرائيلي من أُطُر أبوية ذكورية لإنتاج (أو إعادة إنتاج) هيمنته القائمة على التمييز العرقي في فلسطين، فغالباً ما يتضمن خطاب الحركات الوطنية المناوئة للاستيطان توجهات ذات ضوابط صارمة تتعلق بالجندر والميول الجنسية والجنسانية.[4] ضمن هذه السردية، يموت الرجال دفاعاً عن الوطن، في حين تحافظ عليه النساء بيولوجياً وثقافياً عبر تنشئة الأطفال.[5] وهكذا يصبح التحرر الوطني معتمداً على العلاقات الجنسية مع الجنس المغاير، بما يكرس التصنيفات الثنائية للجندر ويجعل العلاقات الجنسية التقليدية جزءاً أساسياً من الذاتيات الوطنية. وعليه، يتيح لنا هذا العمل استقصاء التفاعل بين الأعراف الجندرية، والخطاب الوطني، وتجربة العيش في ظل الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، إلا أنّه لا يتناول آثار النيوليبرالية؛ وبالتالي، يجب توسيع المنهج البحثي إذا كان يُراد منه التنظير

[1] See Raja Khalidi and Sobhi Samour, 'Neoliberalism as Liberation: The Statehood Program and the Remaking of the Palestinian National Movement', *Journal of Palestine Studies*, XI/2 (2011), pp. 6–25; Toufic Haddad, *Palestine Ltd.: Neoliberalism and Nationalism in the Occupied Territory* (London: Bloomsbury, 2016).

[2] Sarah Banet-Weiser, *Empowered: Popular Feminism and Popular Misogyny* (Durham and London: Duke University Press, 2018); Rosalind Gill, 'Postfeminist Media Culture: Elements of a Sensibility', *European Journal of Cultural Studies* 10/2 (2007), pp. 147–66; Angela McRobbie, *The Aftermath of Feminism* (London: Sage Publications, 2009); Catherine Rottenberg, *The Rise of Neoliberal Feminism* (Oxford: Oxford University Press, 2018).

[3] cf. Aihwa Ong, 'Neoliberalism as a Mobile Technology', *Boundary Crossing* 32/1 (2007), pp. 3-8; Marwan Kraidy, *Hybridity, Or the Cultural Logic of Globalization* (Philadelphia: Temple University Press, 2005).

[4] Walaa Alqaisiya, 'Decolonial Queering: The Politics of Being Queer in Palestine', *Journal of Palestine Studies* 3 (2018), pp. 29–44; Joseph Massad, 'Conceiving the Masculine: Gender and Palestinian Nationalism', *The Middle East Journal* 49/3 (1995), pp. 467–83; Rema Hammami, 'Women, the Hijab and the Intifada', *Middle East Report* (1990); Julie Peteet, 'Male Gender and Rituals of Resistance in the Palestinian Intifada: A Cultural Politics of Violence', *American Ethnologist* 21 (1994), pp. 31–49; Penny Johnson & Eileen Kuttab, 'Where have all the Women (and Men) Gone?' *Feminist Review* 69 (2002), pp. 21–43.

[5] Laleh Khalili, *Heroes and Martyrs of Palestine* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007); Rhoda Kanaaneh, *Birthing the Nation: Strategies of Palestinian Women in Israel* (Berkeley: University of California Press, 2002); Nira Yuval-Davis, *Gender and Nation* (London: Sage Publications, 1997).

للإجابة على سؤال أثر العولمة الحديثة، إن كان لها أثر أصلاً، في إعادة توجيه الذاتيات، وفي تشجيع إقامة تشكيلات اجتماعية وثقافية جديدة في فلسطين المعاصرة.

يطمح هذا المشروع لسد هذه الثغرات. على امتداد 24 شهراً، من 2019 إلى 2021، وتحت الظروف المؤسفة لانتشار وباء كوفيد 19، عمل فريق البحث على عدة مسارات استقصائية مترابطة: الخدمات المصرفية، والإنتاج الثقافي في المسرح والإعلانات في وسائل الاتصال. من خلال العمل الجماعي (وبقدر ما سمحت القيود المفروضة بموجب إجراءات الحجر الصحي)، أنجزنا 40 مقابلة نوعية شبه منظّمة وذات توجه نسوي مع كلا الجنسين من العاملين المختلفين في الإعلام (منتجو المحتوى الإعلامي مثلاً) والمشاركين (الممثلون المسرحيون مثلاً) والجمهور (المشاركون في برامج تدريبية أو مستخدمو ومشاهدو الإعلانات مثلاً) في الضفة الغربية. وعزّزنا هذه البيانات النوعية بتحليل سمعي بصري لأكثر من 100 نص وصورة متعلقة بالمجالات الفرعية الثلاثة التي تناولها المشروع.

عموماً، تُبيّن نتائج هذه البيانات كيف ترسّخ وسائل الإعلام المعاصرة والمنظومات الثقافية القائمة أفكاراً غير مُسيّسة، ومشتتة في الوقت نفسه، حول «التمكين» القائم على الجندر في فلسطين. وتُظهِر نتائجنا نطاق تأثير الممارسات النيوليبرالية وحدودها في فلسطين، بما يتيح لنا التوصل إلى استنتاجين رئيسيين. أولاً: لا ريب أن الأعراف النيوليبرالية تكرّس تصورات ذاتية مثالية تتمحور حول الفردانية الشديدة وتحقيق الذات الفردية والمرونة، من خلال الإنتاج الإعلامي والثقافي، كما قد تشير إلى ذلك الأدبيات ذات الصلة. وثانياً: في المقابل، ليست هذه التصورات التقليدية شاملةً، كما أنها لا تنمو في الفراغ. لطالما تسللت سلوكيات الهوية المُعَولمة إلى تكوينات الحياة الاجتماعية، المليئة أساساً بعناصر جندرية تقليدية مُسبقة، ومنظومات الوصاية الثقافية. لذلك، تمتزج هذه البنى الاجتماعية والسياسية بالقيم النيوليبرالية لتنتج ذاتيات سياسية مركّبة تنقسم في منظومات إخضاع متنافسة.

نصل إلى هذه الخلاصة بخطوات متنوعة مترابطة. بدايةً، أتولى (أنا، بولي ويذرز) مراجعة بعض المناقشات الأساسية في الدراسات الإعلامية النسوية حول التحولات التي يحدثها الانتقال إلى النيوليبرالية في الجندر والجنسانية في القرن الحادي والعشرين في ظل الرأسمالية المتقدمة. وأخلص إلى أن الدراسات الإعلامية والثقافية النسوية تتجاهل فلسطين ومنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بشكل متكرر. لذلك، أؤكد أن من أهم مساهمات هذه الدراسة هي إصرارها على إثارة موضوع الدراسات الإعلامية النسوية في المنطقة وعنها ومنها باعتباره إشكالية يلزم دراستها. وبعد ذلك، تصيغ ريما حمامي الإطار النظري للنيوليبرالية في فلسطين، وتصِف المنظور الاقتصادي السياسي الذي يتناول منه المحللون والمحللات العولمة النيوليبرالية في السياق الفلسطيني، مؤكدةً على الحاجة إلى البحث من منظور سوسيولوجي قائم على الجندر لتعميق البحث. ثم نقدم دراستين لحالتَين اثنتين. في الدراسة الأولى، تستقصي رانيا جواد كيف يتعامل ممثلو وممثلات المسرح مع مطالب الجهات المانحة لتقديم أعمال حول العنف المنزلي. فبالنسبة للجهات المانحة، يُعرّف العنف المنزلي دائماً بأنه «عنف قائم على الجندر (أو على النوع الاجتماعي)» بما يوحي بأن هذا السلوك موجود في مناطق معينة من العالم دون غيرها. وترى رانيا جواد أن هذه الوصاية الإمبريالية تحول الممثل إلى ناشط تنموي ، وهو دور يؤديه من شارك في دراسة جواد بشكل مرن. وفي الدراسة الثانية، تستخدم أميرة سلمي مثال مشروع «فلسطينية» المصرفي لبحث ما إذا كان بنك فلسطين يستند إلى أفكار حول تمكين المرأة لتعميق دوره، ودور المنظومة المصرفية الأوسع، في المجتمع الفلسطيني المعاصر. رغم اللجوء إلى مفاهيم نسوية ليبرالية ونيوليبرالية حول دخول النساء مجالات العمل التي أُقصين منها تاريخياً، ترى سلمي أن هذا النوع من المشاريع يعزز، في الواقع، علاقات القوة الذكورية والصور النمطية الجندرية ذات الصلة في النظام الاجتماعي. أخيراً، أختتم الدراسة وألخص مساهماتها الأساسية في دراسات منطقة الشرق الأوسط ودراسات الجندر، والدراسات الإعلامية والثقافية النسوية.

الجندر والجنسانية في ظل الرأسمالية النيوليبرالية: عرض (موجز) للدارسات الإعلامية النسوية

بولي ويذرز

يكثر العمل النظري، في البحث الإعلامي والثقافي النسوي، حول أثر الأطر النيوليبرالية على مفاهيم الجندر والجنسانية في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة في الشمال العالمي. يتخذ هذا البحث هيمنة الرأسمالية الحديثة والنيوليبرالية كسياق اقتصادي سياسي، ويستخدم الثقافة الشعبية ليبيّن دور وسائل الإعلام المعاصرة في تجسيد وتشكيل الذكورة والأنوثة والجنسانية في القرن الحادي والعشرين. يتتبع هذا العمل النظري، الذي ينتج مفاهيم توليدية لموجات النسوية الشعبية والنيوليبرالية وموجة ما بعد النسوية، كيف تعمل الرأسمالية المتقدمة على نزع الطابع السياسي عن تاريخ التنظيم النسوي، وتُقحم في الوقت نفسه حلولاً تكنولوجية انضباطية لتعزيز النزعة الفردانية بشأن الأجساد – المؤنثة غالباً – والرغبات ومراقبتها في سياقات نيوليبرالية.[6]

تأسيساً على ذلك، ترى سارة بانيت-فايزر في دراستها «النسوية الرائجة» أن الثقافات الإعلامية التي تهيمن في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة تعمّم النسوية، بل وتجعلها موضة رائجة وواسعة الانتشار في منظومات إعلامية مختلفة. إلا أن أنماط النسوية التي حققت الانتشار تخضع بالضرورة إلى عملية شاملة لنزع الطابع السياسي تماماً عنها. والاتجاهات النسوية التي تحظى بأكبر قدر من الظهور على المنصات الرقمية هي تلك التي تكرّس المبادئ النيوليبرالية، المتمثلة في اتخاذ القرارات على أساس فردي انعزالي، وفي تمكين واستقلالية القرار الاستهلاكي باعتباره جبراً للضرر الهيكلي. غالباً ما تُستَخدم تعبيرات نسوية للتسويق لمنتجات وأنماط عيش مرتبطة بها في السوق الرأسمالية، وهي بذلك تحوّل هذه الحساسيات النسوية الإيجابية الآمنة الهويات السياسية إلى مجرد أداء مُمَسرح للهوية الشخصية المفرطة (مثل ارتداء قميص طُبِع عليه شعار نسوي، أو شغل موقع «المرأة القيادية» في العمل). في هذه البيئة الإعلامية، تظهر العلامات النسوية في كل مكان، ولكنْ مُفرَّغةً من معناها، ليتحول النشاط النسوي من عمل سياسي إلى اقتصاد الشهرة. تتخذ «النسوية الرائجة» في ظل ثقافة الاستهلاك، إذاً، شكل عَرضٍ مُمَسرح غير مسيّس، يرمي إلى زيادة الربح وتخدير المتلقي، عوضاً من أن تكون مشروعاً للتغيير العميق والمنهجي. وبذلك، تتداعى الركائز الأساسية للنشاط النسوي الرامي إلى إحداث تحول بنيوي قائم على العدالة.

وعلى نحو متّصل، يستقصي بحث روزاليند جيل وأنجيلا مكروبي حول «ما بعد النسوية» في السياقات التي تتغلغل فيها الأفكار النيوليبرالية عميقاً في الأطر المؤسسية للمجتمع، كيف تكرّس وسائل الإعلام التجارية والثقافة الشعبية فكرة أن النساء لم يعدن بحاجة إلى النسوية، لأن أهدافها (الليبرالية) قد تحققت (على ما يبدو؛ فالنساء يعملنَ ويتعلّمن ولهنّ الحق في الملكية الخاصة ويتلقينَ بعض الرعاية الصحية الإنجابية والعناية بأطفالهن.[7] يتضمّن هذا التنصل من النسوية سياقاً اجتماعياً تاريخياً تستمر ضمنه أشكال العنف الذكورية (اللفظية والمادية) من دون رادع، إلا أن النساء – وفق سردية وسائل الإعلام الربحية – أكثر تحرراً من أي وقت مضى. إذاً، يشير المنطق الشائع في «ما بعد النسوية» إلى الحاجة إلى النسوية، ولكنه يتنصل منها في الوقت نفسه.[8] ويؤدي هذا إلى نزع الصبغة السياسية عن الأمراض الاجتماعية التي تمارسها الذكورية على النساء (والرجال)، وتحمّل الفردَ مسؤولية آثارها وردود الفعل بشأنها. هكذا، ترى جيل أن تيار

[6] Banet-Weiser, Empowered; Gill, 'Postfeminist media culture'; McRobbie, *The Aftermath of Feminism*; Rottenberg, *The Rise of Neoliberal Feminism*.

[7] Gill, 'Postfeminist Media Culture'; McRobbie, *The Aftermath of Feminism*.

[8] المرجع نفسه

«ما بعد النسوية» يغرس حساسيات نيوليبرالية جندرية قائمة على المسؤولية الفردية وحدها (النظرة الإيجابية والثقة والمرونة الشخصية) عن النجاة في زمن نيوليبرالي ذي بنية مختلة.[9]

المفهوم الأخير في هذه الثلاثية هو «النسوية النيوليبرالية» وفق اصطلاح كاثرين روتنبيرغ.[10] تركّز أطروحة روتنبيرغ على سياق الولايات المتحدة، وتنظر في التحالف الغريب بين عالم الشركات الكبرى والمفردات النسوية. ترى روتنبيرغ أننا نشهد، في ظل النيوليبرالية، تحولات من نسوية ليبرالية تركز على مساواة النساء (أو البعض منهنّ، من الطبقة الوسطى، ومن ذوات الميول الجنسي للجنس المغاير، ومن البيض غالباً) بالرجال في مكان العمل وتحريرهن في المنزل، إلى نسوية هجومية ذات أسلوب مستوحى من القيادة، تسعى إلى تحسين موقع النساء الحاصلات على امتيازات عرقية وجنسية طبقية في مجتمع يخلو من المساواة ويهيمن عليه المال. وهكذا، تستخدم هذه الأنوثة شديدة الفردانية اللغة النسوية لإعادة إنتاج الفصل الرأسمالي بين إناث ذوات قيمة (لأنهنّ يزدنَ رأس المال) وإناث بلا قيمة (عاملات الرعاية المنزلية اللواتي يسهل الاستغناء عنهنّ). تنتج هذه التشكيلة الثقافية صراعاً بين النساء والنساء. ويشجع استخدام لغة التمكين بعض النساء على الميل إلى القيادة وإقصاء بعضهنّ الآخر من النخبة الاجتماعية التي يخلقها نظام اجتماعي اقتصادي كهذا. تتقاطع النسوية «النيوليبرالية»، إذاً، مع النسوية «الرائجة» و«ما بعد النسوية» في إقصاء النضال الرامي إلى التوزيع الجندري غير العادل لقوة العمل، ويكرس البُنى الهَرَمية العنصرية عرقياً وجندرياً وطبقياً.

رغم أثر هذه الصياغات المفاهيمية واسع الانتشار في النظرية الثقافية الأوروبية الأمريكية، فهي تغيب، على نحو مفاجئ، من النقاش حول الجندر والجنسانية والإعلام في ظل الرأسمالية النيوليبرالية في الجنوب العالمي. وتتعرض منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا للتجاهل، ويفتقر سياقها إلى عمل تنظيري وافٍ. وهذا أمر مهم، إذ يبدو أنه ناجم عن افتراض، ضمني على الأقل، بأن الرأسمالية المعولمة وتمييزها الطبقي والجندري وتقسيمها للعمل لا تخترق المنظومة الاجتماعية الاقتصادية للمنطقة. إلا أن سيميديل دوسكون في عملها البحثي حول تنظير جيل للثقافات الإعلامية «ما بعد النسوية» في نيجيريا، تبيّن أن العالم «غير الغربي» لم يكن يوماً منفصلاً عن شبكات الإنتاج والمراكمة والإخضاع الرأسمالية المُعولمة التي أنتجت في أماكن أخرى عملاً سياسياً رخواً وغير فاعل يتعلق بالجندر/التوجه الجنسي.[11] بالتفكير في المسكوت عنه في مجالنا البحثي، ترى دوسكون أن الدراسات الإعلامية في شمال العالم تصور «الفتيات العالميات» إجمالاً باعتبارهن ضحايا «التقاليد» أو «الثقافة» المهيمنة. تركّز دوسكن على أن الدراسات تتجاهل موقع الفتيات في الجنوب العالمي، الخاص بسياقاتهنّ المحددة، متجاهلةً التقاطع بين التركيبة الطبقية والجندر في هذه المنطقة. في الواقع، أشار العديد من الباحثين والباحثات في النشاط الإعلامي الجندري والتنموي إلى السبل التي تساعد هذه القطاعات في استخدام صورة «الفتاة العالمية» هذه للإبقاء على علاقات القوة الجيوسياسية.[12] يكشف لنا هذا العمل عن السبل التي تعتمدها الجهات الغربية المانحة في بناء صورة فتيات شمال العالم بأنهنّ «المُنقِذات المُمَكَّنات» لمن يوصفنَ بأنهن «أخواتهن»، فتيات الجنوب العالمي «المسحوقات». ولكن، في حين يسلط هذا البحث الضوء على البنى الهَرَمية القائمة على الجندر بين الشمال والجنوب، فإنه يتجنّب الخوض في ديناميات التفاعل فيما بين المُنقِذ والمُنقَذ عندما تحدث داخل مجتمعات الجنوب في العالم .

[9] Sarah Banet-Weiser, Rosalind Gill & Catherine Rottenberg, 'Postfeminism, Popular Feminism and Neoliberal Feminism', *Feminist Theory* 21/1 (2020), pp. 3–24.

[10] Rottenberg, *The Rise of Neoliberal Feminism*.

[11] Simidele Dosekun, *Spectacular Femininity* (Chicago: University of Illinois Press, 2020).

[12] E.g. Mimi Thi Nguyen, 'The Biopower of Beauty: Humanitarian Imperialisms and Global Feminisms in the Age of Terror', *Signs* 362 (2011), pp. 359–83; Heather Switzer, '(Post)feminist Development Fables: The Girl Effect and the Production of Sexual Subjects', *Feminist Theory* 14/3 (2013), pp. 345–60; Loubna Skalli, 'The Girl Factor and the (In)Security of Coloniality: A View from the Middle East', *Alternative; Global, Local, Political* 40/2 (2015), pp. 174–87.

هذا هو المجال الذي يمكن للبحث النسوي في مجال الجندر في الشرق الأوسط أن يساعد على ربط أدبيات الدراسات الإعلامية القائمة بشكل أكبر بالسياق الفلسطيني. وفيما يعمل البحث النسوي على تسليط الضوء على المنطقة، كان من أبرز آثار النيوليبرالية على العمل السياسي النسوي إبعاد العمل النسوي الجماعي عن القواعد الشعبية، وتوجيهه نحو غرف مجالس إدارة المنظمات غير الحكومية والمؤتمرات الدولية.[13] ترى هذه الأبحاث أن التحولات النيوليبرالية – التي توصَف بأنها تضفي صبغة المنظمات غير الحكومية على حركة النساء العربيات – ضيّقت هامش عمل النساء السياسي، باستخدام البُنى الهرَمية الطبقية في المقام الأول.[14] حين تدفّق التمويل من المانحين إلى الضفة الغربية بعد توقيع اتفاقية أوسلو، أدى ذلك إلى استحداث فرص عمل في المنظمات غير الحكومية التي تركز على حقوق النساء.[15] ونظراً لاشتراط إتقان اللغة الإنجليزية، إلى جانب مهارات أخرى مثل كتابة طلبات المنح، غالباً ما عملت في هذه الوظائف نساء متعلّمات من الطبقة الوسطى في المدن. وأدى ذلك، كما تبيّن هذه الأبحاث، إلى إنشاء فئة عابرة للمناطق من النسويات النخبويات اللواتي يعملن على المستوى الدولي، لا على المستوى المحلي أو الشعبي. أحدث ذلك أثراً كبيراً في مجالات النشاط النسوي في الضفة الغربية. ليس ذلك فحسب، بل عمّق أيضاً الانقسامات الطبقية بين النساء في المجتمع الفلسطيني. وهكذا يتبيّن كيف انتقلت ديناميكيات التفاعل فيما بين المُنقِذ والمنقَذ، التي تضعها الأبحاث العالمية عادة بين الشمال العالمي والجنوب العالمي، إلى داخل المجتمع الفلسطيني. لذلك، فإن مساهمة البحث الذي يركز على الشرق الأوسط في مجال الدراسات الثقافية النسوية، يضع أساساً للمزيد من العمل على تحليل الآليات التي تصيغ بها العلاقاتُ الطبقيةُ طبيعةَ الوساطة النسوية ونطاقَها وثقافتَها في المنطقة.

عموماً، تستقصي هذه الورقة إلى أي مدى تشكّل العولمة النيوليبرالية الذاتيات الجندرية والطبقية والجنسية (أو تعيد تشكيلها)، من خلال وسائل الإعلام الاستهلاكية والعمل الثقافي في السياق الفلسطيني. وتركّز الورقة على الثغرات في دراسات نظرية الإعلام النسوية، وتستند إلى نقاشات تركّز على الجندر في الإعلام العالمي حول ثقافة الاستهلاك في الجنوب العالمي وتساهم فيها.[16] واستناداً إلى العمل البحثيّ النقدي حول العولمة الإعلامية، ترفض هذه الورقة الفهم التبسيطي للتحول إلى النيوليبرالية في بلاد الشام على أنها إمبريالية «غربية» مفروضة من الأعلى إلى الأسفل أو مهيمنة أو شمولية.[17] بل يتتبّع البحث كيف ترسم المنظومات الإعلامية حدوداً وانتماءات ضمن الحدود المحلية والقُطرية والإقليمية من خلال

[13] Eileen Kuttab, 'The Palestinian Women's Movement: From Resistance and Liberation to Accommodation and Globalization', *Vents d'Est, Vents d'Ouest: Mouvements de Femmes et Féminismes Anticoloniaux* (Geneva: Graduate Institute Publications, 2009), pp. 101–16; Victoria Bernal & Inderpal Grewal (eds.), *Theorizing NGOs: States, Feminisms, and Neoliberalism* (Durham & London: Duke University Press, 2014).

[14] Islah Jad, 'The NGOisation of the Arab Women's Movements', *Al-Raida Journal* 2 (2004), pp. 42–56.

[15] Rema Hammami, 'NGOs: the Professionalisation of Politics', *Race & Class* 37/2 (1995), pp. 51–63; Rema Hammami, 'Palestinian NGOs Since Oslo: From NGO Politics to Social Movements?', *MERIP* 241 (2002), pp. 16–19, 27, 48.

[16] E.g. Purnima Mankekar, Screening Culture, Viewing Politics (London: Duke University Press, 1999); Inderpal Grewal, Transnational America: Feminisms, Diasporas, Neoliberalisms (Durham & London: Duke University Press, 2005); Ritty Lukose, Liberalization's Children (Durham: Duke University Press, 2009); Rachel Heiman, Carla Freeman, & Mark Liechty, The Global Middle Classes: Theorizing through Ethnography (Santa Fe: University of New Mexico Press, 2012); Carla Freeman, *Entrepreneurial Selves* (London: Duke University Press, 2014); Mehita Iqani, *Consumption, Media and the Global South: Aspiration Contested* (Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2015); Mehita Iqani & Simidele Dosekun, S. (eds), *African Luxury: Aesthetics and Politics* (Bristol: Intellect Books, 2019).

[17] E.g. Raka Shome & Radha Hedge 'Culture, Communication, and the Challenge of Globalisation', *Critical Studies in Media and Communication*, 19/2 (2002), pp. 172–89; Kraidy, *Hybridity*; Shu-mei Shih, *Visuality and Identity: Sinophone Articulations Across the Pacific* (Berkeley: University of California Press, 2007); Purnima Mankekar 'Media and Mobility in a Transnational World' in Hesmondhalgh, D. & Toynbee, J. (eds), *The Media and Social Theory* (London: Routledge, 2008), pp. 145–58.

رأس المال. وعليه، تكمن إحدى أهم مساهمات هذه الدراسة في صياغة إشكالية النظرية الثقافية والإعلامية النسوية حول العولمة النيوليبرالية في الحالة الفلسطينية، وهو ما يستدعي دراسة تاريخ النموذج النيوليبرالي ونطاقه وحدوده في السياق الفلسطيني، وهو التحليل الذي سنتناوله أدناه.

النيوليبرالية في فلسطين

ريما حمّامي

اكتسبت الأداة التحليلية التي تركز على النيوليبرالية لدراسة حياة الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي زخماً بعد التحولات الملحوظة في نماذج وخطاب السلطة الفلسطينية للحوكمة مع انتهاء الانتفاضة الفلسطينية الثانية. ما زال منظور الاقتصاد السياسي لهذا العمل مهيمناً على تحليل العمليات النيوليبرالية في فلسطين، ولكن مع التركيز على المبررات السياسية أكثر من المبررات الاقتصادية.[18] تركز أعمال بحثية موازية أصغر حجماً على تجسّد النيوليبرالية في منظومات السيطرة والتوسع الاستيطانيين الإسرائيليين، بما يشمل نظام تخطيط المستوطنات وتكنولوجيا المراقبة والتحكّم في الحركة.[19] أخيراً، قليلة هي الدراسات التي تركز على الأبعاد الثقافية والاجتماعية للنيوليبرالية في السياق الفلسطيني، أو تركّز على ظهور الذاتيات النيوليبرالية.[20]

[18] Raja Khalidi and Sobhi Samour, 'Neoliberalism and the Contradictions of the Palestinian Authority's State-building Programme', in Mandy Turner & Omar Shweiki (eds), *Decolonizing Palestinian Political Economy: De-Development and Beyond* (London: Palgrave Macmillan, 2014), pp. 179–99; Mandy Turner, 'Completing the Circle: Peacebuilding as Colonial Practice in the Occupied Palestinian Territory', *International Peacekeeping*, 19/5 (2012), pp. 492–507; Turner & Shweiki (eds), *Decolonizing Palestinian Political Economy*; Jeremy Wilderman, 'Neoliberalism as Aid For the Settler Colonization of the Occupied Palestinian Territories after Oslo', in Alaa Tartir & Timothy Seidel (eds), *Palestine and Rule of Power* (London: Palgrave Macmillan, 2019), pp. 153–74; Haddad, *Palestine Ltd;* Tariq Dana, 'The Structural Transformation of Palestinian Civil Society: Key Paradigm Shifts', *Middle East Critique* 24/2 (2015), pp. 191–210; Tariq Dana, 'Localising the Economy as a Resistance Response: A Contribution to the "Resistance Economy" Debate in the Occupied Palestinian Territories', *Journal of Peacebuilding & Development* 15/2 (2020), pp. 192–204; Alaa Tartir 'Contentious Economics in Occupied Palestine' in Fawaz Gerges (ed.), *Contentious Politics in the Middle East* (New York: Palgrave Macmillan, 2015), pp. 469–99; Alaa Tartir, 'Securitised Development and Palestinian Authoritarianism under Fayyadism', *Conflict, Security & Development* 15/5 (2015), pp. 479–502; Linda Tabar & Omar Salamanca, 'After Oslo: Settler Colonialism, Neoliberal Development and Liberation' in *Critical Readings of Development under Colonialism* (2015), pp. 9–32; Kareem Rabie, *Palestine Is Throwing a Party and the Whole World Is Invited* (Durham: Duke University Press, 2021).

[19] Andy Clarno, 'Neoliberal Colonization in the West Bank', *Social Problems* 65/3 (2018), pp. 323–41; Haim Yacobi and Erez Tzfadia, 'Neo-Settler Colonialism and the Re-Formation of Territory: Privatization and Nationalization in Israel', *Mediterranean Politics* 24/1 (2019), pp. 1–19; Irus Braverman, 'Civilized Borders: A Study of Israel's New Crossing Administration', *Antipode* 43/2 (2011), pp. 264–95.

[20] Polly Withers, 'Ramallah Ravers and Haifa Hipsters: Gender, Class, and Nation in Palestinian Popular Culture', *British Journal of Middle East Studies 48/1* (2021), pp. 94–113; Laura Junka-Aikio, 'Late Modern Subjects of Colonial Occupation: Mobile Phones and the Rise of Neoliberalism in Palestine', *New Formations* 75/75 (2012), pp. 99–121; Noemi Casati, 'Political Participation in a Palestinian University: Nablus Undergraduates' Political Subjectivities through Boredom, Fear and Consumption', *Ethnography* 17/4 (2016), pp. 518–38; Chris Harker, *Spacing Debt: Obligations, Violence, and Endurance in Ramallah, Palestine* (Durham: Duke University Press, 2020).

فلسطين النيوليبرالية: مقاربة قائمة على الاقتصاد السياسي الصِّرف[21]

يشكل ظهور السياسة «الفياضية» (نسبة إلى سلام فيّاض) و «مشروع الضفة الغربية الأول»، الذي اتّبعت فيه قيادة السلطة الفلسطينية بعد الانتفاضة الثانية سياسات نيوليبرالية، السياقَ المحدد الذي جعل النيوليبرالية موضوعاً للتحليل. فبعد أن أوشكت السلطة الفلسطينية على الانهيار تحت وطأة إجراءات مكافحة التمرد الإسرائيلية خلال الانتفاضة الثانية، تدخلت الولايات المتحدة وغيرها من الدول المؤثرة جيوستراتيجياً لتوطيد حكم السلطة الفلسطينية، نظراً لأهمية وجودها لعملية أوسلو للسلام. وكان من بين المكوّنات الأساسية في العملية استحداث منصب رئيس الوزراء الفلسطيني الجديد عام 2007، والذي بدا مصمَّماً ليشغله الخبير الاقتصادي الذي عمل سابقاً في صندوق النقد الدولي، سلام فياض، والذي صاغ عدداً من السياسات الاقتصادية للسلطة الفلسطينية، وإصلاحات سياسات أخرى جسّدت الركائز الأساسية للإيديولوجيا النيوليبرالية. وبدلاً من تبرير هذه المبادرات بأسباب اقتصادية بحتة (تشجيع النمو الاقتصادي)، عرض فيّاض سياساته على أنها مكوّن محوري من استراتيجية سياسية أوسع تمكّن الفلسطينيين من الحصول على الاعتراف والشرعية الدوليين، بما سيؤدي إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وتحقيق الاستقلال الفلسطيني بوسائل دبلوماسية. كان الأساس المنطقي لهذه الاستراتيجية (التي سُميت «مشروع الضفة الغربية الأول» ثم وُضِعت في صيغتها النهائية ضمن خطة السلطة الفلسطينية للإصلاح والتنمية عام 2008) أنه يمكن الحصول على الاستقلال والحرية في فلسطين من خلال حُسن السلوك، وعلى وجه التحديد، سلوك السلطة الفلسطينية وفق أعراف الحوكمة النيوليبرالية الجيدة، التي تم وضعها في مرحلة ما بعد «إجماع واشنطن».

ونظراً لانتشار الخطاب النيوليبرالي في نقطة التحول الحاسمة هذه في مشروع التحرر الفلسطيني وما تبقى من قيادته التاريخية، ثمة ما يشبه الإجماع في الأدبيات البحثية بأن الفياضية هي المدخل الذي اتخذته النيوليبرالية إلى شكل الإدارة والحياة الاقتصادية الفلسطينية، وقدّمت لها السلطة الفلسطينية رعايةً لتصبح إيديولوجيتها. يحافظ الإطار الشائع لتحليل النيوليبرالية في فلسطين على تركيزه على الجهات الأساسية في هذا التحول (السلطة الفلسطينية والجهات الدولية المانحة وأبرز الرأسماليين الفلسطينيين)، ويُستشَف شيوع النيوليبرالية من خلال وثائق السياسات والأدوات القانونية. ورغم أن الأبحاث تقارب المسألة من منظور الاقتصاد السياسي، فإن أغلبها يركز على المبررات السياسية، لا الاقتصادية.[22] ويعود هذا إلى الصلة الخطابية الواضحة التي عقدتها الفياضية بين السياسات النيوليبرالية والعمل الجيوسياسي للدولة باعتباره مشروع التحرر الوطني، ويُعزى أيضاً إلى ندرة العناصر الواردة في «النيوليبرالية الموجودة بحكم الواقع» في المجتمع.[23]

يتمثل العمل التأسيسي لهذا البحث الأكاديمي حول النيوليبرالية في فلسطين في مقالة رجا خالدي وصبحي سامور، التي نُشِرت عام 2011، حيث رسمت العديد من الضوابط التحليلية المتضمنة في هذه النزعة.[24] عبر تحليل وثيقة السياسات الأساسية لحكومة فياض الأولى، خطة الإصلاح والتنمية لعام 2009، اعتبر الكاتبان الرعاة الجيوسياسيين لعملية السلام

---

[21] In reference to Rex Brynen's insight that the Palestinian economy is more political than economic. See Rex Brynen, *A Very Political Economy: Peacebuilding and Foreign Aid in the West Bank and Gaza* (Washington D.C.: United States Institute of Peace Press, 2000).

[22] See Tariq Dana, 'The Structural Transformation of Palestinian Civil Society: Key Paradigm Shift', *Middle East Critique*, 24/2 (2015); Linda Tabar and Omar Jabary Salamanca, *After Oslo: Settler Colonialism, Neoliberal Development and Liberation* (2015); Alaa Tartir, 'Contentious Economics in Occupied Palestine'; Alaa Tartir, 'Securitised Development and Palestinian Authoritarianism under Fayyadism', *Conflict, Security & Development*, 15/5 (2015).

[23] Jamie Peck, Neil Brenner, & Nik Theodore, 'Actually Existing Neoliberalism', in Damien Carhill et al. (eds.) *The Sage Handbook of Neoliberalism* (London: Sage Publications, 2018), pp. 3–15.

[24] Khalidi & Samour, 'Neoliberalism as Liberation'.

وسياسات الجهات المانحة بوصفهم يقومون بدور محوري في تحول السلطة الفلسطينية نحو النيوليبرالية، وركّزا في المحصلة على التداعيات السياسية الأوسع لربط استراتيجية التحرر الوطني بالأسس المنطقية لإجماع واشنطن النيوليبرالي. ولكنهما، باعتبارهما باحثين في الاقتصاد، كانا أول من أشار إلى انعدام سيطرة السلطة الفلسطينية على الأدوات الرئيسية لتنفيذ النيوليبرالية الاقتصادية (الأسواق والحدود وسعر صرف العملة وغيرها) نتيجة تحكّم إسرائيل الكامل في الاقتصاد. تناول توفيق حداد أيضاً هذه المسألة، حيث سعى كتابه المنشور عام 2016 لتحليل كيف لعبت الفياضية دوراً أمنياً جيوسياسياً أوسع، بما مكّن إعادة إنتاج الرأسمالية النيوليبرالية العالمية والإقليمية، بدلاً من أن يكون له حضور عملي في الحياة الاقتصادية الفلسطينية. حسب هذه القراءة الأدقّ، أدّت السلطة الفلسطينية وظيفة جيوسياسية محورية، وإن كان خطابية في المقام الأول، لتمكين الولايات المتحدة وحلفائها من الترويج لقيادة فلسطينية «معتدلة»، أكثر مرونة وطاعةً، يمكنها أن تدمج إسرائيل في المنطقة في الاقتصاد وغيره من المجالات.[25] يتقاطع تحليل ماندي تيرنر مع هذه النظرة، ولكنه يركز على منظور تجذر النيوليبرالية في نماذج بناء الدولة الخاضعة برعاية الجهات المانحة، وترى تيرنر أن هذه النماذج تقلّد ركائز نظرية «كسب قلوب وعقول» السكان المحليين المُستَخدمة في سياسات مكافحة التمرّد المعاصرة.[26]

الأطر الشمولية

تركّز هذه الأعمال البحثية، التي تقارب المسألة من زاوية الاقتصاد السياسي، على البعد الجيوسياسي لتحول السلطة الفلسطينية نحو النيوليبرالية، وتتّفق، في المحصّلة، على أن هدفها الرئيسي هو التهدئة السياسية، واحتواء القيادة الفلسطينية والمقاومة بشكل أعم. يستخدم باحثون آخرون أطروحة «التهدئة/الاحتواء»، ولكن بعد تحويلها إلى إطار داخلي لتفسير تحولات إيديولوجية وبنيوية واسعة، وآثارها على الحياة المدنية والسياسية الفلسطينية.[27] تفترِض هذا الأعمال افتراضاً أن السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي تنفذها السلطة الفلسطينية حقيقية، وتؤكد ذلك من دون استقصاء مدى دقة هذا الافتراض. وترى هذه الأبحاث أن تحول السلطة الفلسطينية إلى النيوليبرالية مدفوع بمصالح نخبها المادية، في المقام الأول، وتشكّله القوى الدولية والجهات المانحة التي يعتمد عليها. سواءٌ أركّزت الأبحاث على ظهور نخب سياسية فاسدة وهيمنة «الرأسمالية النيوليبرالية الزبائنية»، أم على نقد «النموذج التنموي النيوليبرالي» الفلسطيني وتبني منظمات غير حكومية فلسطينية له، يرى كتّاب وكاتبات هذه الأبحاث أن اتخاذ السلطة الفلسطينية، والتشكيلات السياسية والمنظمات غير الحكومية المتحالفة معها، للنيوليبرالية مذهباً هو خيانة لمشروع التحرر الوطني الفلسطيني، ونزع الصبغة السياسية عن المجتمع المدني، وتعطيل مقصود لمقاومة الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي.[28] وباتّباع الإيديولوجيا النيوليبرالية، تواطأت هذه القوى الفلسطينية الفاعلة مع إسرائيل، بشكل مباشر أو غير مباشر، في حرمان فلسطين والفلسطينيين المستمر. وثمة ضرب من هذه المقاربة يركز على التداخل بين الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي من جهة والنيوليبرالية من جهة أخرى، حيث يرى أن الاستعمار الإسرائيلي هو القوة الرئيسية وراء «إعادة الهيكلة النيوليبرالية» للفضاء والاقتصاد والحوكمة السياسية في فلسطين.[29]

---

[25] Haddad, *Palestine Ltd.*

[26] Turner, 'Completing the Circle'.

[27] Sibille Merz, 'Missionaries of the New Era': Neoliberalism and NGOs in Palestine', *Race & Class* 54/1 (2012), pp. 50–66; Dana, 'The Structural Transformation of Palestinian Civil Society'; Dana, 'Localising the Economy as a Resistance Response'; Jamil Hilal, 'Rethinking Palestine: Settler-Colonialism, Neo-Liberalism and Individualism in the West Bank and Gaza Strip', *Contemporary Arab Affairs* 8/3 (2015), pp. 351–62; Tabar & Salamanca, *After Oslo*; Tartir 'Contentious Economics in Occupied Palestine'.

[28] Dana, 'Localising the Economy as a Resistance Response'; Merz, 'Missionaries of the New Era'; Dana, 'The Structural Transformation of Palestinian Civil Society'; Tabar & Salamanca, 'After Oslo'.

[29] Andy Clarno, 'Neoliberal Colonization in the West Bank' in *Social Problems*, 65/3 (2018).

منظورات تنطلق من القاعدة إلى القمة: التعقيد والتناقض وعدم التوازن

في مواجهة هذه الأطر الشمولية، التي تبدو فيها النيوليبرالية قوية ومنتشرة، وأنها السبب في العطب السياسي الذي يمنع المشروع التحرري الفلسطيني من إحراز التقدم، ثمة عملان إثنوغرافيان متعمّقان ينطلقان من جانب محدد ممّا يسمى التحول النيوليبرالي، وهما دراسة كريم ربيع لمشروع روابي للتطوير العمراني، ودراسة كريس هاركر لتجربة الشريحة الأدنى من الطبقة الوسطى مع الدَّين للمصارف في رام الله[30] من الملفت أنه رغم تركيز كل من العملَين على ظاهرة نيوليبرالية نموذجية (حيث ركز هاركر على الدَّين الاستهلاكي المستحق للمصارف، وركز ربيع على التخطيط الحضري المُخَصخص)، يرفض الكاتبان تناول المفهوم النيوليبرالي بغية تجنب التحليل الشمولي المعتاد (الفلسطيني وغير الفلسطيني). يستخدم ربيع في مقاربته لمدينة الروابي الخاصة والمخطّطة أقوالَ وسرديات المُخطِّطين والمعماريين والمستثمرين ورواد الأعمال والمُسوِّقين الذين عملوا في المشروع، والذي لاقى ثناءً كبيراً من الجهات الدولية المانحة ورعاة عملية السلام باعتباره تجسيداً للحلول النيوليبرالية للحد من تمدد الاحتلال الإسرائيلي، والترويج للسلام وبناء الدولة، في الوقت نفسه. في المحصّلة، يبيّن تحليل ربيع كيف تهيمن أشكال وأفكار نيوليبرالية في فضاءات تغيب عنها الدولة وتخضع للاستعمار، لا كعملية هرَمية شمولية، بل كدوائر متشرذمة ومتناقضة من التراكم غير المتوازن والتفاعل الجزئي مع العمليات العالمية وتدفق رأس المال. بهذه الطريقة، يصبح من الممكن أن نرى كيف تندرج العمليات النيوليبرالية في مشروع وطني لبناء الدولة ومواجهة الاحتلال، وفي الوقت نفسه، تطيل بقاء الاستيطان الإسرائيلي. ومن خلال تتبّع تفاصيل الخطاب السياسي الاقتصادي النيوليبرالي وأفكاره وعلاقاته، يقدم عمل ربيع مقابلاً بحثياً مهماً لمقاربة الاقتصاد السياسي المهيمنة بشأن فلسطين النيوليبرالية.

على نحو مشابه، تقدم دراسة هاركر لنمو وانتشار الدَّين الاستهلاكي لدى الفلسطينيين من الشريحة الأدنى من الطبقة الوسطى في أحياء رام الله، انتقاداً قوياً للإطار التحليلي المهيمن. تركز الدراسة على صياغة الهياكل الأساسية للسياسات التي تشجع القروض الاستهلاكية للأسر الفلسطينية (وهو ابتكار تجريبي أطلقه سلام فياض)، ويرى هاركر أن آثار هذه الأدوات المالية، عند قراءتها بدقة من خلال تجارب المقترضين، تظهر الحدود المفهومية للخطاب النقدي الأكاديمي حول النيوليبرالية. فانتشار القروض الاستهلاكية في فلسطين ليس «تسونامي اقتصادياً» تبدو فيه النيوليبرالية فجأةً كأداة موحّدة ومتناغمة تحدث تحولاً في مجالات متعددة من الحياة الفلسطينية، بل يُضاف الدَّين النيوليبرالي إلى تركيبة اجتماعية وأخلاقية معقّدة موجودة مسبقاً، وهو لا يخلق فئة من المدينين ذوي النزعة الفردية على الفور، بل يعمّق – في السياق الفلسطيني – الشبكات العشائرية وأشكال الواجب الاجتماعي والأخلاقي الموجودة أساساً. ورغم أن دراسة هاركر تتناول الاقتصاد الجيوسياسي لنظام الدَّين النيوليبرالي في فلسطين، تتوصل قراءته الإثنوغرافية الدقيقة للدين الليبرالي، التي يقوم عليها تحليله، إلى صورة أكثر دقةً وتعقيداً، فهو يخلص إلى أن انتشار القروض الاستهلاكية يمكن أن يُعزى جزئياً إلى تحولات في أنماط العيش ورغبات المستهلكين، لكن دافعه الأول هو الحفاظ على مستوى المعيشة وسبلها، بدلاً من التطلع إلى نمط عيش نيوليبرالي.

الذاتيات الهجينة

ما زال كتاب هاركر الدراسةَ المعمّقة الوحيدة التي تركز على البعد الاجتماعي للنيوليبرالية، ولكن سبقته بضعة أبحاث إلى طرح أسئلة أولية حول ظهور ذاتيات نيوليبرالية وأشكال ثقافية في السياق الفلسطيني. في تحليل لورا يونكا-أيكيو، الذي يركّز على انتشار تكنولوجيا الهواتف الجوالة وشبكاتها، وتحولاتها وصلاتها المتناقضة بالانتماء والهوية الفلسطينيين، تَتتبّع يونكا-أيكيو بعناية الرسائل التجارية المتغيرة للشبكة الفلسطينية الرئيسية (والمشهورة)، «جوال»، خلال الانتفاضة الثانية

[30] Rabie, *Palestine's Throwing a Party*; Harker, *Spacing Debt.*

وفترة الفياضية.[31] وتبيّن في بحثها كيف تداخلت رسائلها الوطنية التقليدية مع العبارات المجازية النيوليبرالية (الامتياز العالمي في التكنولوجيا المتطورة وخيار المستهلك ووعي الشركة بأهمية حماية البيئة). ترافق هذا مع تحول في الخطاب الشعبي تجاه «جوال»، حيث تغير الحديث، على نحو متزايد، من دور الشركة الوطني في فلسطين، إلى الحديث عن حقوق المستهلك ورضاه، التي تُلبّى بشكل أفضل إذا تنافست عدة شركات في السوق منافسةً حرة. وفي توجّه مشابه، تشير نعومي كاساتي إلى أنه في سياق من «الاستعصاء» المكاني والزماني،[32] والخوف والتشاؤم من السياسات الوطنية، يعبّر طلبة الجامعة الفلسطينيون عن توقهم إلى حياة طبيعية، الأمر الذي يدفعهم إلى اللجوء إلى قيم ورغبات الاستهلاك النيوليبرالية.[33] لا تستخلص كاساتي فكرة تبسيطية عن غياب التسييس وانتصار الصيغ النيوليبرالية، بل ترى أن التناقضات الظاهرية في خطاب الطلبة وسلوكهم يشير إلى أن الذاتيات الفلسطينية السياسية متعددة المستويات والأوجه. ويبيّن تحليلها كيف يتجاور التعلّق بأخلاقيات المقاومة وبالوطنية مع الرغبات النيوليبرالية، وتصبح أشكال القيمة النيوليبرالية لغة تُستَخدم للتعبير عن خيبة الأمل إزاء إخفاقات النشاط السياسي الوطني التقليدي.

يهدف بحثا كاساتي ويونكا-أيكو إلى التشكيك في التمثيل المهيمن للذاتيات السياسية الفلسطينية وحصرها في التصور الوطني المُقاوم. إلى جانب هاركر، تقدم الباحثتان بديلاً للتحليلات القاطعة، إما أبيض وإما أسود، إما المقاومة وإما التآمر النيوليبرالي ، وغيرها من الثنائيات المتصارعة حسب الأدبيات السياسية والاقتصادية الشائعة. تستكشف هذه الأبحاث الثلاثة معاً كيف يمكن للأفكار والاندفاعات النيوليبرالية أن تندرج في تعبيرات معاصرة عن الشخصية الفلسطينية، من دون أن تنتج شخصية نيوليبرالية صرفة. ويؤكد التحليل المُقدم في هذه الأبحاث الحاجة إلى فهم انتشار الأشكال والأفكار النيوليبرالية (وجاذبيتها المحتملة) في المُعاش الفلسطيني اجتماعياً وجيوسياسياً، بما يشمل المشاريع والالتزامات الأخلاقية المتنافسة، والخطاب والعمليات المواجهة لها. بناءً على ذلك، سواء أكانت الأشكال والأفكار الليبرالية نماذج لتغلغل الفردانية، أم حسابات جديدة للرغبة والقيمة، أم تطلعات إلى أنماط عيش جديدة، أم أشكالاً جديدة من التعبير عن الشخصية، فإنها تتفاعل في السياق الفلسطيني (مثل غيره) مع المنظومة الاجتماعية والذاتيات القائمة، فتؤثر وتتأثر بها، بما يؤدي إلى ذاتيات معقدة مُهَجَّنة، وإلى تشكيلات اجتماعية وثقافية جديدة. ومن هذه الرؤى والمقاربات، تنطلق دراسات هذا المشروع.

[31] Junka-Aikio, 'Late Modern Subjects of Colonial Occupation'.

[32] Andrew Jefferson, Simon Turner & Steffen Jensen, 'Introduction: On Stuckness and Sites of Confinement', *Ethnos* 84/1 (2019), pp. 1–13.

[33] Casati, 'Political Participation in a Palestinian University'.

دراسة حالتين

في القسم التالي من هذه الورقة، نبدأ من نقاط الانطلاق النظرية المبيّنة أعلاه لتتبّع التداخل بين الأعراف والأخلاقيات النيوليبرالية مع قوى أخرى في السياق الفلسطيني المعاصر.

الاستثمار الدولي في الفنانين باعتبارهم عاملين في مجال التنمية: العنف القائم على الجندر والأداء المسرحي

رانيا جواد

يتناول بحثي عمل الفنان باعتباره عاملاً في مجال التنمية، ويركز على الاستثمار الدولي الذي يضع الفنان في موقع الباحث ضمن إطار تنموي لمكافحة العنف القائم على الجندر. وينصبّ اهتمامي على أشكال استخدام شبكة من المؤسسات والهيئات للمسرح، باعتباره ممارسةً ثقافية، لإنتاج تجارب تجسيد العنف الجندري أو توثيقه. ما هي حدود الأطر التحليلية المستخدمة في عمل كهذا؟ وكيف تتجلى هذه التجارب لدى الفنان، الذي أصبح عمله موضوع استثمار؟

هنا، يصبح المجال الفني المسرحي الفلسطيني موقعاً لتحليل العلاقات الإمبريالية الاستعمارية لهذه الاستثمارات الدولية العابرة للحدود، حيث يؤكد التركيز على المسرح تجربة وأداء ما يُسمى التنمية البشرية. يركز بحثي على بعدَين اثنَين؛ يتعلق أولهما بعرض تداخل الاستثمار الاقتصادي والإيديولوجي في الإنتاج الثقافي والتنمية الجندرية وما يُعلَن عنه بأنه عرض لقصص «حقيقية»، ويهمّ ثانيهما تحليل علاقة الفنانين بمشاريع كهذه، من خلال اندفاعهم للمشاركة فيها، وآرائهم فيها بعد انتهائها.

يقدم البعد الأول فهماً للإيديولوجيات النيوليبرالية وهي تؤدي دورها في مجال الإنتاج الثقافي بأشكال تحول الفنانين إلى شهود ورواة للعنف القائم على الجندر أمام الجمهور المحلي والدولي. أما الثاني، فيزيد تعقيد «شروط المشاركة» المُحددة بين جهة دولية مانحة والشبكات والمؤسسات المحلية، وتحديداً فيما يخص مشاركة الفنانين والفنانات في المشاريع التي تجمع شهادات عن العنف الذي تتعرض له النساء الفلسطينيات.[34]

أقدم هنا دراسة حالة موجزة لمشروع مسرحي طلبته وكالة غير حكومية دولية عام 2014، وتلقى التمويل من حكومة أوروبية. تؤكد إحدى الممثلات فيه، في معرض تأملاتها عن المشروع، أن تجربتها لا تتبع الأسس المنطقية لهذا الاستثمار ثلاثي المستويات، ولا يمكن أن تندرج في إطاره. وعلاوة على ذلك، تتحدى تأملات الممثلة الفكرة المُبسطة حول سياق أو بنية تتشكل من تجمّع قوى خارجية تخترق العمل الفني ومؤسساته وتجارب المشاركين فيه وتؤثر في مخرجات ذلك.[35] يمتد هذا التحليل ليشمل تفاصيل ظاهرة توظيف الممثلين المحليين في أجندات جندرية وتنموية في الجنوب العالمي، تُنفّذ باستخدام الإنتاج الثقافي المحلي.

بدأ المشروع المسرحي بمبادرة من مسؤول محلي في وكالة غير حكومية دولية، وبحث عن «قطاع إبداعي» ينفذ البرامج الخاصة بالجندر ذات الأولوية العالمية للوكالة. وطُلِب من المسرحيين إنتاج سلسلة من الورشات التفاعلية، مع التركيز على المشاركات النساء، في 11 منطقة مصنّفة على أنها مهمّشة في الضفة الغربية، خلال شهر. مع انتهاء كل ورشة، يختار الفريق

[34] Cynthia A. Wood, 'Authorizing Gender and Development: "Third World Women," Native Informants, and Speaking Nearby', *Nepantla: Views from South* 2/3 (2001), pp. 429–47.

[35] Randy Martin (ed.), 'Introduction', in *The Routledge Companion to Art and Politics* (New York: Routledge, 2015), pp. 1–12.

المسرحي امرأة أو اثنتَين لإجراء مقابلة معهما ولتكون قصصهما مصدراً للمسرحية المزمع إنتاجها بموافقة المُشارِكات. عمل الفريق على المسرحية ورشات عمل اضافية لمدة شهر، وعُرِضت في وقت لاحق من العام نفسه، وأُعلِن عنها بأنها تعالج قضية العنف القائم على الجندر وأنها مستمدة من قصص حقيقية.

ما يجمعه هذا المشروع هو الاستثمار الاقتصادي الدولي في أجندة التنمية العالمية الخاصة بالعنف القائم على الجندر، كنتاج لتركيبة إمبريالية من فن الحكم العالمي، مع استخدام الإنتاج الفني كأداة تحشيد وتوعية.[36] يصبح الفريق المسرحي شاهداً على العنف القائم على الجندر وموثقاً له، وتصبح النساء المشارِكات موضوعاً للتنمية بتقديم صعوبات حياتهنّ على المسرح. يبقى المشروع المسرحي تحت هيمنة آليات إدارة انضباطية تحكم المُنتَج النهائي وطريقة إنتاجه وقياس أثره. ومن الواضح كيف تُنتَج «القصص الحقيقية»، وكيف تُعقَد الورشات مع النساء وتُرصَد، وكيف يُيَسّر العرض المسرحي الحي ويُوَثَّق ويؤرشَف. غالباً ما تنتج عملية التوثيق وكتابة التقارير وتقييم المشروع، وهي من شروط الجهات الممولة، صورةً لإحراز التقدم المطرد في المشروع، ثم نجاحه، الصوريّ على الأقل، الأمر الذي يؤدي إلى المزيد من الاستثمار في مشاريع ثقافية شبيهة، معززة بذلك المفاهيم الفردانية لتمكين المرأة وحقوق الإنسان وحرية التعبير.

لقد انتقد الباحثون الأسس المنطقية التي تستند إليها هذه الاستثمارات: من تحويل العنف إلى عنف منزلي وتصوير العنف القائم على الجندر على أنه مشكلة ثقافية تخص الجنوب العالمي المتخلف،[37] إلى عرض آلام الناس على المسرح مقابل أموال الجهات المانحة، بما يرسّخ صورة تفوق الغرب، ويمنح الشرعية لدور الشاهد على الشهادات الشخصية أو القصص الحقيقية.[38] واستكشف جورج يوديس هيمنة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي تحول دور الفنانين والفنانات إلى «تقديم خدمات توسع نطاق سيطرة رأس المال» ليشمل المجتمعات التي تُعتَبر متخلفة،[39] في حين كتبت لورا إدموندسون عن انتشار المؤلفات الأكاديمية التي تفضّل الإيمان بقدرة الفن على التمكين وإحداث التغيير أو الأمل في ذلك بدَل القلق إزاء ما يشهده العالم بشأن غياب العدالة وانتشار الاستغلال واليأس وسياسات الإبادة.[40] بهذا المنطق يصبح المسرح خدمةً قصيرة الأمد تُقدَّم في المجتمعات المحلية «المتخلفة»، ولكنها في الوقت نفسه، تُقدَّم بحيث تساهم حصراً في فهم محدد للعنف القائم على الجندر باعتباره مشكلة فلسطينية تحتاج إلى تدخل ما. في هذه الحالة، يركّز تقرير المشروع والتغطية الإخبارية، بما يتوافق مع معظم العمل الأكاديمي والصحفي حول المسرح الفلسطيني، على أهمية العمل الثقافي الذي يُشرِك المجتمع المحلي وسط عنف النظام الاستيطاني المدعوم بتواطؤ حكومات ومؤسسات دولية. تؤكد قراءة مشاركات الفريق الفني في هذا المشروع أن هذه الأسس تؤدي إلى إنتاج علاقات وتجمّعات وتجارب محددة، وتبيّن حدود هذا المنطق في التأطير والتشكيل.

---

[36] Rema Hammami, 'Follow the Numbers: Global Governmentality and the Violence against Women Agenda in Occupied Palestine', in Janet Halley, Prabha Kotiswaran, Rachel Rebouché and Hila Shamir (eds), *Governance Feminism: Notes from the Field* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2019), pp: 479–504.

[37] Penny Johnson, '"Violence All Around Us": Dilemmas of Global and Local AgendasAddressing Violence against Palestinian Women, an Initial Intervention', *Cultural Dynamics* 20/2 (2008), pp. 119–32; Lila Abu-Lughod, 'Seductions of the "Honor Crime"', *Differences: A Journal of Feminist Cultural Studies* 22/1 (2011), pp. 17–63; Hammami, 'Follow the Numbers'.

[38] Sherene Razack, 'Stealing the Pain of Others: Reflections on Canadian Humanitarian Reponses', *Review of Education, Pedagogy and Cultural Studies* 29/4 (2007), pp. 375–94; Nadera Shalhoub-Kevorkian, Antonina Griecci Woodsum, Himmat Zu'bi & Rachel Busbridge, 'Funding Pain: Bedouin Women and Political Economy in the Naqab/Negev', *Feminist Economics* 20/4 (2014), pp. 164–86.

[39] George Yúdice, *The Expediency of Culture: Uses of Culture in the Global Era* (Durham: Duke University Press, 2003), p. 332.

[40] Laura Edmondson, 'Of Sugarcoating and Hope', *TDR* 51/2 (2007), pp. 7–10.

بما أن تأملات كل فنان وفنانة في المشروع تركز على ديناميكيات ووجهات نظر متباينة، أقدم هنا مناقشة موجزة لتأملات إحدى الفنّانات، وهي لا تمثل إلا قراءة واحدة لهذه الأطر البنيوية. تستند تأملاتها إلى ثلاثة مصادر: أولاً، نص المسرحية الذي يتضمّن شهادات الممثلين، حيث يعرف كل منهم بنفسه ويتحدث بصوته الشخصي. ثانياً، نص كتبته الممثلة في مجلة أُصدِرت خصيصاً للمشروع ووُزِّعت على الجمهور خلال عرض المسرحية. ثالثاً، مقابلة شخصية أُجرِيت معها بعد أكثر من عام على انتهاء المشروع. تنتمي الممثلة إلى الأراضي الفلسطينية التي احتُلت عام 1948، وانضمّت إلى المشروع دعماً للمسرح وعمله المُسيّس والصعوبات التي واجهها خلال السنوات الماضية.

في منتصف المسرحية تقريباً، ترد شهادة الممثلة، التي تحاول فيها التعبير عن تجربتها بعد إجراء 12 ورشة تفاعلية مع نحو 200 امرأة مشاركة فيها. تقول:

> ...بعد انتهاء الورشات، وبعد إصغائي لقصص النساء، شعرتُ أنني أقرب وأقرب. أقرب إلى ماذا؟ لا أعرف. ولكنني شعرتُ بالقرب. وهذا يعني أنني لم أشعر بأنني كنتُ أحاول أن أدخل مجالاً بعيداً عني. بل شعرتُ بأنني كنتُ أتحدث عن نفسي، بشكل ما، بأنني كنتُ أتحدث عن جدتي أو عمتي أو أمي.

لاحقاً في المسرحية، تؤدي الممثلة دور إحدى النساء، فتقول إنها تزوجت عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وتسمّي الأطفال الثمانية الذين أنجبتهم ممن ما زالوا على قيد الحياة وممن رحلوا.

بما أن صوت الممثلة يتداخل مع صوت الشخصية في العرض، تضع الممثلة الصوتَين جنباً إلى جنب في النص الذي كتبته للمجلّة المرافقة للعرض. تقسم الممثلة نصَّها إلى قسمين: الأول يبدأ بكلمة: «تقول»، والثاني يبدأ بكلمة «أقول». يتضمّن النصف الأول جزءاً من شهادة المرأة التي تؤدي الممثلة دورها على الخشبة، ويصف تجربة المرأة عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ترتدي زي المدرسة وتلعب في الشارع. تنتهي آمالها بمتابعة دراستها ومواصلة اللعب عندما تُجبَر على الزواج. في القسم الثاني، «أقول»، تجيب الممثلة. تبدأ بالقول إنها لم تمرّ بتجربة شبيهة بتجربة الشخصية التي أدت دورها، فهي لم تتزوج ولم تكن تحب المدرسة ولا اللعب في الشارع، ولكنّها تتذكر أيام المدرسة والزي المدرسي عندما كانت في سن الثالثة عشرة. تصف الممثلة كيف كبرت في مدينة تشعر فيها باغتراب شديد، فلا اللغة لغتها، ولا المدينة مدينتها، ولا التاريخ تاريخها. ثم تكتب:

> كان الإحساس بالغربة هو الأكبر، كانت المدينة تسرق منّي كلّ يوم عند خروجي من البيت، كوبين من الطفولة، حتى لم يبق لي منها إلا أمل صغير بإرتداء مريول مدرسة كمريولها، يعيد لي طفولتي في مكان آخر يشبهني.

لا تحاول الممثلة العثور على تشابهات بين تجربتها وتجربة المرأة، ولعل الاختلاف بين التجربتين هو ما يربطهما من وجهة نظر الممثلة. فالقُرب التي تتحدث عنه الممثلة في المسرحية لا ينبع من تجربة شبيهة، وهي لا تضع نفسها في موقع العارِفة، فالممثلة تقر أن فردانيتها هشّة لا متماسكة، كأنها تتحدث عن نفسها أو عن قريبة لها. في النص المنشور في المجلة تتحدث الممثلة عن الجغرافيا الاستيطانية التي تسرق طفولتها، إلى حد أن الممثلة تجد أنها ستكون أقرب إلى نفسها لو أنها ترعرعت في مكان يشبه المكان الذي عاشت فيه المرأة. إن النص الذي كتبته الممثلة في المجلة وأداءها لشهادة المرأة على الخشبة هما تجسيد لتجربة المرأة المرْوية كما شكّلها وعرضها ومثلها فريق المسرحية. تتضمن التجربة أيضاً بعض التعديلات، وتحويلها إلى تجربة الراوي نفسه، ولعل صبغةً شاعرية أُضيفت إليها من خلال زي المدرسة، وعرض مسرحية طلبتها جهة محددة.

في مقابلتي مع الممثلة، أقرّت بأن معرفتها بأن هدف الورشات التي عقدت مع النساء كان هو الحصول على مواد للإنتاج، وأن تجارب النساء الشخصية الحياتية ستتحول إلى قصص تُعرض على المسرح، كان أمراً صعباً عليها، وتحدّثت عن التركيبة عندما سجّلت التجارب الشخصية للنساء المختارات بعد ورشة المسرح. قالت: «عندما يكون جهاز

التسجيل أمامكِ، لا تنظر النساء إليكِ على أنكِ ممثلة مسرحية، بل على أنكِ قادرة على مساعدتهن».

عند تسجيل الشهادة، تختلط صورة العاملة في مجال الثقافة النموذجية مع صورة العاملة في مجال التنمية، سواء في نظر المشاركات أم في نظر الممثلة نفسها. تتفكّك صورة الممثلة، باعتبارها مُقدِّمة خدمة، في هذه الفضاءات الحميمية، كما تتفكك في الفضاءات غير الحميمية مثل عروض المسرح للجمهور الذي حددته الجهات المانحة إلى جانب العرض المخصص للنساء المشاركات. كانت الأسئلة حول الأخلاق والمحاسبة على معاينة تجارب النساء وتوثيقها وعرضها جزءاً أساسياً من مشاركة الممثلة في المشروع. تختلف تأملات كل ممثل أو ممثلة عن تأملات غيرها، ولكن هذه التأملات جميعاً تبيّن أن هذا العمل والعرض الحي على خشبة المسرح لا يمكن أن ينحصر في منطق الاستثمار الاقتصادي والإيديولوجي في العمل الثقافي ليكون عملاً تنموياً جندرياً. يبيّن استكشاف تأملات الفنانين خلال عملهم في هذه المشاريع التي تندرج في شبكات ووساطات واستثمارات أوسع، أن ما يعيشه المشاركون ويترجمونه ويجسدونه ويؤرشفونه لنا لا يتم إنتاجه أو تشكيله أو التنبؤ به أو تفسيره في طلب المشروع وحده وإدارته وتوثيقه.

برنامج «فلسطينية» في فلسطين

أميرة سلمي

يستقصي هذا البحث كيف يبني بنك فلسطين، ذاتاً أنثوية ممولة عبر برنامج التمكين المالي«فلسطينية». أستخدم في البحث مقابلتين اثنتين مع مسؤولين عن البرنامج من البنك، بالإضافة إلى مقابلات مع نساء يعرض البنك صورهنّ الشخصية في الإعلانات الطرقية باعتبارهنّ نموذجاً يُحتذى به، وباعتبار قصصهنّ قصص نجاح. علاوة على ذلك، أعمّق مادة المقابلة من خلال تحليل الخطاب لقصص نجاح النساء على صفحة فيسبوك الخاصة بالبرنامج، بالإضافة إلى قصص ومقابلات مع «رائدات الأعمال» اللواتي يشاركن في برنامج فلسطينية، وتستضيفهن محطة راديو نساء إف إم الإذاعية بالشراكة مع بنك فلسطين.[41]

تربط دراسات عديدة بين الشمول المالي والتمويل و برامج ومشاريع القروض الصغيرة. وترى معظم هذه الدراسات في الشمول المالي وسيلةً أخرى لاستخلاص القيمة من الفقراء والمهمّشين بمن فيهم النساء.[42] في حين ترى دراسات أخرى في الدَّين والتمويل الفردي شكلاً من فن الحكم يبني ذاتيات منضبطة تعكس هيمنة القطاع المالي.[43] على سبيل المثال، تترجم سلطة النقد الفلسطينية شمول النساء المالي إلى استقبال طلبات القروض لتأسيس شركات صغيرة. وعلى حد وصف سلطة النقد الفلسطينية وشريكها، منتدى سيدات الأعمال، فإن هذا الشمول المالي «يمكّن» النساء (باعتبارهن مجموعة

[41] See https://www.facebook.com/palwoman/ and https://www.radionisaa.ps/

[42] Lamia Karim, 'Demystifying Micro-Credit: The Grameen Bank, NGOs, and Neoliberalism in Bangladesh', *Cultural Dynamics* 20/1 (2008), pp. 5–29; Susanne Soederberg, 'Universalising Financial Inclusion and the Securitisation of Development', *Third World Quarterly* 34/4 (2013), pp. 593–612; Isabelle Guérin, Solène Morvant-Roux, & Magdalena Villarreal, *Microfinance, Debt and Over-Indebtedness* (New York and London: Routledge, 2014); Ghazal Zulfiqar, 'Financializing the Poor: 'Dead Capital', Women's Gold and Microfinance in Pakistan', *Economy and Society* 46/3-4 (2017), pp. 476–98; Chris Harker, 'The Promise of Financial Inclusion: Finance as Future in Palestine', *Geografiska Annaler: Series B, Human Geography* 103/4 (2021), pp. 320–36.

[43] Srilatha Batliwala & Deepa Dhanraj, 'Gender Myths that Instrumentalise Women: A View from the Indian Frontline', *IDS Bulletin* 35 (2004), pp. 11–18; Maurizio Lazzarato, 'Immaterial Labor', in Paolo Virno & Michael Hardt (eds), *Radical Thought in Italy: A Potential Politics*, NED-New edition. Vol. 7. (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996), pp. 133–148; Maurizio Lazzarato, *The Making of the Indebted Man* (Trans. Joshua David Jordan), (Amsterdam: Semiotext, 2011); Karunakaran Kalpana, 'Economic Entitlements via Entrepreneurial Conduct: Women and Financial Inclusion in Neoliberal India', *Journal of World-Systems Research* 21/1 (2015), pp. 50–68.

مهمّشة)، ويكفل، في الوقت نفسه، «سلامة واستقرار النظام المصرفي».[44]

يرى كريس هاركر أن عملية الشمول المالي بقيادة النخبة الاقتصادية والسياسية في فلسطين « ترتبط بسياقات المؤسسات العالمية (الأمم المتحدة، البنك الدولي) وأفضل الممارسات العالمية».[45] ووفقاً لهاركر، فإن الشمول المالي يتضمن:

> مجموعة من الممارسات التي تنتظم حول وعود مستقبلية وأزمنة -وفضاءات معينة (فلسطينية)، والتي تضمن أن مؤسسات مثل سلطة النقد وهيئة سوق رأس المال الفلسطينية يمكنهما الاستمرار في سياق يؤدي فيه الاعتماد الكبير على التمويل والدعم الدولي دورا كبيرا في تشكيل السياسة والممارسة...ومن المهم التنبه إلى أن الوعود بالشمول المالي يحل تدريجياً محل وعود أقل موثوقية من وعود التحرر والعودة والاستقلال والدولة القادرة على إدارة البلاد.[46]

إن ما يصفه بنك فلسطين وسلطة النقد الفلسطينية ومنتدى المرأة الاقتصادي وحتى النساء أنفسهنّ بأنه تمكين سياسي واقتصادي يُتَرجم إلى تدريب على ريادة الأعمال موجه «لتصبح» الملتحقات به ذواتاً ممولة وقادرة على الحصول على قرض وإدارته. ووفق البنك، إذا أصبحت المرأة مديرة مشروع فهي تصبح قائدة للمجتمع. وكما يرد في صفحة مشروع «فلسطينية» على فيسبوك، يهدف المشروع إلى «تمكين» النساء ليمتطين مكوكاً فضائياً رمزياً إلى السماء. ومن هذا المنطلق، ووفق سلطة النقد الفلسطينية وشريكه منتدى سيدات الأعمال، يدعي مشروع «فلسطينية» رفع مستوى «الوعي المصرفي» لدى النساء بتشجيع مشاركتهن في الخدمات المصرفية الرقمية واستخدامها، وتيسير وصولهنّ إلى الشركات الصغيرة والتمويل.[47] رغم ذلك، يرى هاركر أن ما يحققه الشمول المالي هو «استعمار الحياة الاجتماعية والنيل منها». حيث تؤدي هذه العملية إلى خلق ذاتية إجبارية، من خلال عملية نزع القدرات والتي تتضمن "العمل ساعات طويلة"، و فيما تعمل على صناعة الذات الممولة، فإنها «تقوّض منظومة الدعم الاجتماعي التي تمكّن المجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية من الاستمرار».[48]

يقلل البنك من أهمية الجوانب التجارية والمالية للبرنامج في سرديته، ليركز على التنمية. يؤكد البنك أن دوافع المشروع الرئيسية هي احتياجات النساء وتمكينهن، ولكن الخطاب التنموي والتمكيني المستخدم يؤكد نهج مقاربة الجندر والتنمية من زاوية الكفاءة الاقتصادية.[49] يوصَف البرنامج بأنه قائم على «الإيمان بأهمية تحسين الظروف المعيشية للمرأة الفلسطينية، وهو ما سينعكس إيجاباً على الأسرة الفلسطينية، والاقتصاد الفلسطيني والمجتمع الفلسطيني ككل». يرى البنك أن تطوير فرص الاستثمار وتشجيع النمو الاقتصادي والاجتماعي على المستوى المحلي، يتحقق من خلال «تشجيع النساء ومنحهنّ دوراً أكبر في كافة القطاعات». بالإضافة إلى ذلك، يصوّر البنك مهمته على أنها إعادة تشكيل ظروف المرأة الفلسطينية بحيث تصبحن «قائدات فاعلات ونشيطات».[50]

تستدعي إعادة صياغة الظروف هذه عملية مزدوجة من بناء الذات والإخضاع التي لا تسمح بتجاوزات الذكورية

---

[44] 'Business Women Forum-Palestine', *Facebook* (2021). Available at: https://www.facebook.com/BusinessWomenForum/posts/4616120845092614 (accessed 7 December 2023).

[45] Chris Harker, 'The Promise of Financial Inclusion', p. 12.

[46] المرجع نفسه

[47] 'Business Women Forum-Palestine' Facebook page.

[48] Harker, *Spacing Debt*, p. 132

[49] Cecila Sardenberg, 'Liberal vs. Liberating Empowerment: A Latin American Feminist Perspective on Conceptualising Women's Empowerment', *IDS Bulletin* 39 (2008), p. 5.

[50] 'Felestineya – فلسطينية', *Facebook*. Available at: https://www.facebook.com/palwoman/ (accessed 7 December 2023).

الرأسمالية. وحسب الإفادة الواردة على الموقع الإلكتروني التابع للبنك، فإن «هذه الصفحة هي المبادرة الأولى من نوعها للنساء لتشجيعهنّ وتوسيع آفاقهن في مختلف الجوانب الاقتصادية والعائلية»، وهكذا يصبح البنك حامياً ومُعيلاً في بنية ذكورية لا تقتصر على علاقات القرابة العشائرية، بل هو ينافس أيضاً في عملية صناعة المرأة الخاضعة و التابعة، المرأة التي تَدين للبنك لأنه يفتح الآفاق لها، أو كما تعلن نساء أُجرِيت معهنّ مقابلات، والبنك نفسه: تدين النساء بوجودهنّ للبنك. تُنجَز إعادة صياغة الظروف عبر تلقي خدمات البنك، ويُقاس بفتح النساء للحسابات الجارية وتقدمهن بطلبات للقروض وتلقيها.

يؤدي الوعد النيوليبرالي بأن أي شخص يمكن أن يصبح رائد أعمال، حسب موريتزيو لازاراتو، ما يُسمّيه الرجل المَدين، «فهو مسؤول عن مصيره ومذنب تجاهه».[51] وينطبق هذا أيضاً على المرأة التي يُقال لها إن كونها امرأة يجب ألا يمنعها من "التمكّن» بدورها لتصبح مرأة مَدينة. يبين لازاراتو أن اقتصاد الدَّين يجمع «العمل على الذات» مع العمل التقليدي.[52] فإذا كان على الرجال أن يتحولوا إلى مشروع تجاري، فإن النساء يصبحن مشاريع تجارية لقطاع المصارف والقروض، فلا يمكن تحقيق المرأة لذاتها كإنسان اقتصادي إلا من خلال تدخل البنك لمساعدتهنّ.

لا تقتصر عملية إعادة صناعة ظروف المرأة لتصبح ذاتاً ممولة على تلقيها للخدمات المالية، بل تتضمن أيضاً رؤية النساء لأنفسهنّ والصورة التي يصدرنها عن أنفسهن، فعندما تتعلم المرأة استخدام وسائل الاتصال لتسويق منتجاتها، فهي تتعلم أيضاً كيف تغيّر أسلوب كلامها وكتابتها وحتى لغة جسدها.[53] وهكذا، تتضح دلالة تكرار العديد من النساء اللواتي أجريت معهن مقابلات للعبارة نفسها بأن البنك صنعهنّ، الأمر الذي يؤكد أن النساء المُشاركات قد تحولن إلى منتجات مالية للبنك.

في حالة المرأة، إذاً، لا يتوقف الأمر على أنها تصبح امرأة مَدينة، بل عليها أن تتحمل تكاليف ومخاطر الكوارث الاقتصادية والمالية التي تسببها النيوليبرالية،[54] وتُضاف إليها الأعباء المفروضة أبوياً على كونها إمرأة، أم، وربة منزل. في الواقع، يعترف البنك بتعددية أدوار النساء ويعترف أيضاً باحتياجاتهن «الخاصة»، وهو اعتراف ضروري لشملهنّ، في المحصلة، ضمن فئة الذوات الممولة.

تقول صفحة البرنامج على فيسبوك إنه «يسعى إلى الوصول إلى كافة فئات النساء، من رائدات الأعمال والموظّفات وربّات البيوت، عبر تقديم النصح والإرشاد الخاص بحياة المرأة بحيث تتمكّن من تحقيق التوازن بين عملها وحياتها الشخصية والأسرية».

وبالفعل، ثمة تنوع كبير في المنشورات على الصفحة، وهي تشمل الجميع، ففيها ملصقات حول تربية الأطفال والمشاغل المرتبطة بذلك في الحياة المعاصرة. بعبارة أخرى، تشجع المنشورات العمل والمثابرة وروح المبادرة والتنوع والتنمية. وتتوجه منشورات أخرى إلى الممارسات الاعتيادية واليومية، مثل الوجبات التقليدية وبعض الإجازات والمناسبات الدينية. بهذه الصورة، يصبح البنك جزءاً من حياة جمهوره اليومية، فرداً من العائلة يلقي التحية على الجميع كل صباح.

يقرّ البرنامج بدور المرأة الإنجابي، ولكنه لا يتعامل معه بوصفه يعيق الالتحاق بالبرنامج. أي أن على النساء تعلُّم كيف يجب ألا تمنعهنّ الأمومة عن تحقيق «حلمهن» حسب خطاب البنك، وهو تحقيق ذواتهنّ كرائدات أعمال ناجحات. وعبر قصص نجاح فردية متعددة، تُدعى النساء لحمل عبء العمل الإنجابي الخفيّ في ظل العمل عشر ساعات

[51] Lazzarato, *The Making of the Indebted Man*, pp. 8–9.

[52] المرجع نفسه، ص. 11.

[53] Felestineya – فلسطينية, Facebook. Available at: https://www.facebook.com/palwoman/

[54] Lazzarato, *The Making of the Indebted Man*, p. 9.

يومياً، وهو على ما يبدو مقدار العمل المطلوب لتحقيق مشروع ناجح. إذاً، لا تُدان الأمومة والعمل المنزلي، ولا تُدعى النساء إلى التحرر من هذه الأعباء. بل على العكس، ثمة صفحة أخرى للأمهات، وهي «الأم الفلسطينية رائدة الأعمال» (#Mompreneur-PAL). والنقطة الأساسية هي أن المرأة يتعين عليها الانضمام إلى عالم المال بوصفها رائدة أعمال، بطلة خارقة لا تسمح للعمل المنزلي أو تربية الأطفال بالوقوف في طريقها. أو في حالة الأمهات رائدات الأعمال، تكتسب الأمومة معنى وقيمةً عندما تصبح الأم ذاتاً ممولة، من خلال جعل البنك وخدماته جزءاً مهماً وأساسياً من عائلتها.يرى هاركر أن «عمليات الفردانية واللافردانية الناتجة عن الدَّين تتأثر بأنواع أخرى من القيود والواجبات مثل القيود الأسرية، بما أن الشخص في فلسطين ليس فردانياً بالمعنى الكامل، ولا هو يتصرف بشكل جماعي».[55] في الوقت نفسه، غالباً ما يصور البنك العائلة والمجتمع باعتبارهما عائقين يقفان في طريق المرأة لتحقيق أحلامها، أما البنك والنساء فهما الطرفان المؤمنان بإمكانية تحقيق الحلم. وإذا كانت قصص النساء تتناقض، إذ تركز في بعض الحالات على دور العائلة والمجتمع المُعطل لعدم اقتناعهما في مواجهة دور البنك الداعم والمشجِّع، فإن قصص النساء المروية في المقابلات التي استخدمها البنك لترويج برنامج «فلسطينية» (من دون المشاركة فيها) تبرز الدور المحوري الذي تؤديه العائلة في قدرة النساء على إنجاز مشاريعهن.

بالتركيز على التنمية الذاتية والتفاؤل والإيجابية والطاقة، يعتبر البنك قصص النجاح الاقتصادي هذه بوصفها تستوعب إحباطات المواطنين في ظل ضعف الاقتصاد. وبالتالي لا حاجة لتحدي السياق، وما من حاجة لعمل جماعي أو سياسي لإحداث تغيير، فوحده عمل المرأة على ذاتها، وصراعها مع ذاتها وإعادتها تدجين نفسها، باستعارة تعبير نيتشه، يمكن أن يحافظ على استمرار وهم الحرية والرغبة في التغيير لدى الرجل المَدين/المرأة المَدينة.

الخاتمة

بولي ويذرز

يظهر البحث المُتَضَمّن في هذا التقرير الحاجة الملحة للعمل على تفسيرات جندرية وسوسيولوجية للنيوليبرالية يتجه من القاعدة إلى القمة وتتحدى ما تفترض الأدبيات البحثية أنه أثرها الشامل وردود الفعل بشأنها في فلسطين المعاصرة. أكّدنا طوال هذه الورقة على أن الأسس المنطقية النيوليبرالية لا تنتشر في الفراغ، بل هي تندمج في منظومة اجتماعية قائمة مليئة بالأعراف الاجتماعية والسياسية الأخلاقية. بهذا المعنى، تربط دراسة الحالتين حدود ونطاق ممارسات التأطير النيوليبرالية في فلسطين اليوم.

وتأسيساً على ذلك، يقدم المشروع، من الناحية النظرية، مساهمة مزدوجة للدراسات حول فلسطين/الشرق الأوسط والدراسات الإعلامية والثقافية النسوية. أولاً، وكما اتضح من البحث، قليلة جداً هي الأبحاث التي تتناول «التحول» النيوليبرالي في فلسطين من منظور علم الاجتماع. ولذلك، تفتقر مكتبة الأبحاث بشدة لوجهات النظر التي تتحدى كيف تتصرف القوى الفاعلة المختلفة إزاء التحولات السياسية والاقتصادية الكلية. وبالتالي، يفتح البحث المقدّم في هذا المشروع آفاقاً للبحث في طبيعة التجارب المتغيرة والمتشظية وغير المستقرة التي يخوضها الناس في مواجهة القوى المؤثرة في تحديد الذات على أرض الواقع. ثانياً، وكما أوضحنا منذ مطلع هذه الوثيقة، نادراً ما تقوم الدراسات الإعلامية النسوية بتطبيق المفاهيم الأساسية في المجال لدى النظر في الجندر والجنسانية والإعلام في فلسطين أو منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. بشكل عام، إذاً، عبر إثارة الإشكاليات بشأن الدراسات الإعلامية النسوية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وعنها، يقدم هذا العمل مساهمة إضافية تشجع البحث في المستقبل حول الوسائل المعتمدة في الأطر البحثية، أو غير المعتمدة، أو المفككة، أو المستخدمة انتقائياً في موضوعات ضمن البيئات الإعلامية وأطر الهوية في المنطقة. وعموماً، تتيح هذه الدراسة اتجاهات جديدة لتحليل الإنتاج الإعلامي والثقافي من منظور الجندر في سياق غياب الدولة وانعدام الجنسية والعنف الاستيطاني والعولمة النيوليبرالية

[55] Harker, *Spacing Debt*, p. 100.

The views and opinions expressed in this publication are those of the author(s) and do not necessarily represent those of the London School of Economics and Political Science (LSE) or the Middle East Centre. This document is issued on the understanding that if any extract is used, the author(s) and the LSE Middle East Centre should be credited, with the date of the publication. While every effort has been made to ensure the accuracy of the material in this paper, the author(s) and/or the LSE Middle East Centre will not be liable for any loss or damages incurred through the use of this paper.

The London School of Economics and Political Science holds the dual status of an exempt charity under Section 2 of the Charities Act 1993 (as a constituent part of the University of London), and a company limited by guarantee under the Companies Act 1985 (Registration no. 70527).

Middle East Centre
London School of Economics
Houghton Street
London, WC2A 2AE

LSEMiddleEast

lsemiddleeastcentre

lse.middleeast

lse.ac.uk/mec